التفريغ الثقافي لأبناء الأمة ودوره في تلقي الفكر الحداثي

بقلم

د/ عبد الكريم حاقة
جامعة الشهيد حمه لخضر ـ الوادي
ahaga66@gmail.com

المقدمة:

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، اللّهم صل عليه وعلى آله وصحبه، أما بعد:

فمنذ أن اصطدم العالم الغربي بالإسلام في الحروب الصليبية، وفي الأندلس، وعند أسوار القسطنطينية، والحرب بينهما لم تتوقف، وقد أيقن الغربيون، أن الحرب على الإسلام بالقوة والأسلحة والعساكر قد باءت بالفشل الذريع، لذلك فكروا في طرق أخرى لإخضاع العلم الإسلامي لسلطانهم، فكان أن انتهجوا طريقا جديدا هو ما سمي بحرب الكلمة، وهي حرب تقوم على الغزو الفكري والثقافي، ليكون للغربيين من أبناء المسلمين أتباعا ينوبون عنهم في حربهم على الإسلام، ويحقق الغرب عن طريقهم مصالحه في بلاد المسلمين.

وقد خطط الغرب لأهدافه بنجاح في حين كان العالم الإسلامي يرسف في أغلال التخلف، واستعان بالمستشرقين والمبشرين، وكان من خططه أن يفرّغ الأجيال المسلمة فكريا وثقافيا وتاريخيا وحضاريا، ليملأه بما يريد من أفكاره وثقافته وفنونه وحضارته وتاريخه، ومن ثم ينشأ جيل هو ألصق بالغرب منه بأمته، فيسهل بذلك ابتلاع المسلمين وتغريبهم.

1. إشكالية البحث: أضحت أفكار الحداثيين وأطروحاتهم محل نقاش في كثير من الأوساط العلمية والأكادمية، وذلك يدل على عمق التأثير الذي أحدثه الفكر الحداثي عند المثقفين، الذين هم بدورهم منقسمون بين مؤيد مشجع للحداثة، وبين ناقد قادح فيها، فكيف أتيح

للفكر الحداثي أن يؤثر في طبقة معتبرة من المثقفين؟ وما الذي جعل فئة من أبناء المسلمين تتقبل الفكر الحداثي وتدافع عنه وتدعو إليه؟ وقد سبق الحداثيين إلى العمل في الساحة الإسلامية المستشرقون والمبشرون والمستغربون، وهؤلاء عملوا على تهيئة الأجيال لتقبل الفكر الوافد فيما سمي بالتفريغ الثقافي، فما دور هذا التفريغ في جعل فئة من المثقفين تتقبل الفكر الحداثي؟ وما الآثار المترتبة على التفريغ الثقافي الذي سلط على أبناء المسلمين في عقيدتهم وفكرهم وسلوكهم وأخلاقهم؟

2. أهمية الموضوع: يكتسي هذا الموضوع أهمية كبيرة، لكونه يكشف الغطاء عن المخطط الغربي الصليبي الذي طبق في بلاد المسلمين، وراح ضحيتهم أجيال متعاقبة من التلاميذ والطلبة، الذين صاروا فيما بعد أدوات هدم في كيان الأمة الإسلامية، وأعانوا أعداءها عليها، كما يضع اليد على مكمن الداء، الذي أتيت الأمة من قبله، والذي يجب أن يبدأ منه العلاج والإصلاح، وذلك هو التعليم الذي يجب أن يعاد تأسيسه تأسيسا صحيحا وفق مبادئ الإسلام وعقيدته وشريعته، حتى يتسنى إعادة بناء الأجيال بناء مستقيما على نهج الله تعالى.

3. منهج البحث: إن طبيعة البحث هي التي تفرض نوعية المنهج المتبع، وقد حتم البحث أن يكون له منهجان:

أ. المنهج الوصفي التحليلي الذي اعتمدته في وصف ظاهرة التفريغ وتحليل عناصرها والوسائل المنتهجة لتحقيقها وما ترتب عنها من آثار.

ب. المنهج التاريخي: وعلى ضوئه تتبعت مسارات الغزو الفكري وقصة التفريغ الثقافي، ومن كان وراءها من أساطين الاستعمار الغربي.

4. خطة البحث: قامت خطة البحث على مقدمة، وأربعة مباحث، وخاتمة:

أما المقدمة فكان فيها تعريف بالموضوع، وطرح لإشكالاته، وبيان لأهميته، والمنهج الذي اتبع فيه، والخطة التي سار عليها، والدراسات التي سبقته، وأهم المصادر التي أغنته بمادتها.

وأما المبحث الأول فكان للمفاهيم النظرية، حيث تم فيه تعريف التفريغ الثقافي والحداثة لغة واصطلاحا، وذكر عناصر التفريغ الثقافي.

وأما المبحث الثاني فقد تناولنا فيه قصة التفريغ الثقافي موزعة على أربعة مطالب، فكان الأول للحديث عن الاستشراق، والثاني للحديث عن البعثات العلمية إلى الخارج، والثالث للحديث عن الإرساليات التبشيرية ومعاهدها وجامعاتها، والرابع للحديث عن التعليم الوطني الذي أسسه الاستعمار في بلاد المسلمين.

وأما المبحث الثاني فقد تناولنا فيه الحديث عن وسائل التفريغ الثقافي.

وأما المبحث الرابع فكان للحديث عن العلاقة بين الفكر الحداثي والتفريغ الثقافي.

وأما الخاتمة فكانت للنتائج والتوصيات.

5. الدراسات السابقة:

في حدود ما توصل إليه علمي المتواضع، فإني لم أعثر على بحث مفرد لهذا الموضوع، ولكن هناك من تناول الموضوع في ثنايا دراسته ومن بين تلك الدراسات:

أ. كتاب رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، لمحمود محمد شاكر أبي فهر رحمه الله، فقد تحدث مطولا فيه مبينا زيف ما يدعيه المستشرقون والمستغربون عن حملة نابليون وحكم محمد علي ودور المستشرقين، وقد أفدت منه إفادات محدودة كما هو واضح في الهوامش.

ب. كتاب أجنحة المكر الثلاثة لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني رحمه الله.

ج. كتاب غزو في الصميم لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني أيضا، وهذان قد أفدت منهما فوائد معتبرة. فهذه هي الكتب التي تحدثت صراحة عن التفريغ الثقافي.

6. أهم المصادر:

سبقت إلى الإشارة قبل إلى بعض المصادر في الدراسات السابقة، وقد أفاد البحث من كتب الأستاذ أنور الجندي رحمه الله فوائد كثيرة، فقد تصدى للتغريب والغزو الفكري والاستعمار وأدواته تصديا قل مثيله، بل لقد تخصص في هذا الجانب من البحوث، كم أفاد البحث من كتب محمد محمد حسين وغير ذلك.

المبحث الأول: مفهوم التفريغ الثقافي والحداثة:

المطلب الأول: المفهوم اللغوي:

الفرع الأول: مفهوم التفريغ لغة:

جاء في مقاييس اللغة: « الفاء والراء والغين أصل صحيح يدل على خلو وسعة ذرع. من ذلك الفراغ : خلاف الشغل... وفرس فريغ، أي واسع المشي، وسمي بذلك لأنه كأنه خال من كل شيء فخف عدوه ومشيه»[1]، وفي معجم المحكم لابن سيده: « الفراغ: الخلاء ... وفي التنزيل: ﴿ وأصبح فؤاد أم موسى فارغا ﴾ ، أي خاليا من الصبر. وفرَّغ المكان: أخلاه»[2].

مما تقدم نستنتج أن لفظة التفريغ تعني الإخلاء من الشيء.

الفرع الثاني: مفهوم الثقافة لغة:

جاء في مقاييس اللغة: « الثاء والقاف والفاء كلمة واحدة إليها يرجع الفروع، وهو إقامة درء الشيء. ويقال ثقفت القناة إذا أقمت عوجها. قال:

نظر المثقف في كعوب قناته حتى يقيم ثقافه منآدها

وثقفت هذا الكلام من فلان. ورجل ثقف ولقف، وذلك أن يصيب علم ما يسمعه على استواء. ويقال ثقفت به إذا ظفرت به... فإن قيل: فما وجه قرب هذا من الأول؟ قيل: أليس إذا ثقفه فقد أمسكه. وكذلك الظافر بالشيء يمسكه. فالقياس بأخذهما مأخذا واحدا»[3].

الفرع الثالث: مفهوم الحداثة لغة:

جاء في مقاييس اللغة: «الحاء والدال والثاء أصل واحد ، وهو كون الشيء لم يكن. يقال حدث أمر بعد أن لم يكن. والرجل الحدث: الطري السن. والحديث من هذا، لأنه كلام يحدث منه الشيء بعد الشيء»[4]

---

[1]. ابن فارس، أحمد، مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399ه. 1979م، ج:4، ص: 493.
[2]. ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، تح: عبد الستار أحمد فراج، ط: 1، 1377ه. 1958م، ج:5، ص: 297.
[3]. ابن فارس، مقاييس اللغة، ج:1، ص: 383.
[4]. المرجع نفسه، ج: 2، ص: 36.

المطلب الثاني: المفهوم الاصطلاحي:

الفرع الأول: مفهوم التفريغ اصطلاحا:

عرفنا فيما سبق مفهوم التفريغ لغة أما مفهومه اصطلاحا فهو مرتبط بالشق الآخر من المصطلح، ولذلك سنقوم بتعريف الشق الثاني ثم نجمع الشقين في تعريف واحد.

الفرع الثاني: مفهوم الثقافة اصطلاحا:

جاء في المعجم الفلسفي في مادة (ثقافة): « كل ما فيه استنارة للذهن وتهذيب للذوق وتنمية لملكة النقد والحكم لدى الفرد أو المجتمع، وتشتمل على المعارف والمعتقدات والفن والأخلاق، وجميع القدرات التي يسهم بها الفرد في مجتمعه. ولها طرق ونماذج علمية وفكرية وروحية. ولكل جيل ثقافته التي استمدها من الماضي وأضاف إليها ما أضاف من الحاضر وهي عنوان المجتمعات البشرية»[1]

الفرع الثالث: مفهوم التفريغ الثقافي اصطلاحا:

المقصود بالتفريغ الثقافي هو تنشئة أجيال متعاقبة من تلاميذ المدارس، يرتبطون بالغرب ارتباطا وثيقا، اجتماعيا وسياسيا وثقافيا، عن طريق تفريغهم تفريغا كاملا من ماضيهم كله، وهتك العلائق التي تربطهم به اجتماعيا وثقافيا ولغويا، وملء هذا الفراغ بعلوم الغرب وفنونه وآدابه[2].

الفرع الرابع: مفهوم الحداثة اصطلاحا:

الحداثة من المفاهيم الغربية، التي وفدت إلى المسلمين عن طريق الغزو الفكري لذلك يجدر بنا تعريف الحداثة أولا عند الغربيين ثم تعريفها عند العرب.

أولا: مفهوم الحداثة عند الغربيين:

---

[1]. مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، مصر، 1403ه. 1983م، ص: 58.

[2]. ينظر: شاكر، محمود محمد، المتنبي، مطبعة المدني، (دط)، مصر، 1407ه. 1987م، ص: 21.

الحداثة عند الغربيين هي منهج تغييري ومذهب انقلابي في المفاهيم والأفكار، يختفي تحت شعار التطور والتقدم، ويقبع أحيانا تحت ستار الأدب والفن[1]. والحداثة عندهم أيضا هي ثورة فنية وفكرية ضد ما تخلفه الأحداث التاريخية في عالمهم الغربي من أزمات فكرية وعقدية لا ضابط لها، فهي تعني الإيمان الراسخ بالتطور الفكري والاجتماعي، والتنكر للعقائد والأفكار والتقاليد القديمة من أجل الإتيان بواقع فكري وأخلاقي واجتماعي أفضل، ونظم وقوانين متقدمة مناسبة للعصر الحديث[2].

ثانيا: مفهوم الحداثة عند العرب: الحداثة عند أتباعها من هي: مذهب فكري يسعى لهدم كل موروث والقضاء على كل قديم (إلا المظاهر الثورية والباطنية والفلسفية)، والتمرد على الأخلاق والقيم والمعتقدات[3]. فالحداثة عندهم هي ثورة ضد الثابت من الأفكار والثقافات والسياسات[4].

المطلب الثالث: عناصر التفريغ الثقافي:

يلخص لنا عبد الرحمن حبنكة الميداني ما يسميه خطة التفريغ والملء في العناصر الآتية:

العنصر الأول:

تفريغ أفكار الأجيال الناشئة وقلوبهم ونفوسهم من محتوياتها ذات الجذور العقلية والعاطفية والوجدانية والأخلاقية، وانتزاع كل آثار لها.

العنصر الثاني:

ملء فراغ عقولهم وقلوبهم ونفوسهم، بمخترعات فكرية وعاطفية مزورة ومزيفة، تخدم غايات العدو الطامع الغازي، وتهدم كيان الأمة الموضوعة هدفا للغزو.

---

[1]. ينظر: العلي، محمد بن عبد العزيز بن أحمد، الحداثة في العالم العربي. دراسة عقدية، رسالة دكتوراه، إشراف: د ناصر بن عبد الكريم العقل، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كلية أصول الدين بالرياض، قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة، 1414ه، ص: 123.

[2]. ينظر: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[3]. ينظر: المرجع نفسه، ص: 126.

[4]. ينظر المرجع نفسه، ص: 138.

العنصر الثالث:

تسخير الأجيال التي اصطنعها العدو في هدم مقومات الأمة، ومحاربة ما تبقى لها من فكر وعقيدة أو سلوك وخلق أو تاريخ ومجد.[1]

المبحث الثاني: قصة التفريغ الثقافي:

يرتبط التفريغ الثقافي بمصطلح التغريب، والتغريب مصطلح استعمل للتعبير عن الخطة التي تقوم بها القوى ذات النفوذ السياسي الخارجي في حمل العالم الإسلامي على الانصهار في مفاهيم الغرب وحضارته، والعمل على إخراج المسلمين من هويتهم الإسلامية التي أقامها الإسلام من خلال مجتمعهم وكيانهم ووجودهم السياسي والاقتصادي والاجتماعي، وصهرهم في بوتقة الغرب.[2] وتبدأ قصة التفريغ الثقافي، كمهاد للتغريب، مع بداية الغزو الغربي، الذي منيت به الأمة الإسلامية، ففي أواخر العهد العثماني بدأ كيان الخلافة بالتضعضع، وكان الغرب المتربص يراقب عن كثب، وقد أدرك الغربيون بعد تجارب كثيرة، أن أفضل وسيلة لإخضاع العالم الإسلامي هي بغزوه فكريا وثقافيا، وهو ما سمي بحرب الكلمة، وقد اتخذ لذلك عدة وسائل وأهمها: الاستشراق والبعثات العلمية للطلبة المسلمين إلى البلدان الأوربية، وإرساليات التبشير والتعليم الوطني الذي كان تحت يد الاستعمار.

المطلب الأول: الاستشراق:

كان الاستشراق سباقا إلى العمل، فقد انتشر المستشرقون في بلاد الإسلام، وكانوا يتظاهرون بالعلم، ولكنهم في الحقيقة جواسيس وعيون للغرب في بلاد الإسلام، وقد ساعدوا كثيرا بآرائهم ومخططاتهم في إخضاع الشعوب الإسلامية للغرب المسيحي، يقول صاحب كتاب الاستشراق رسالة استعمار: « إن الاستشراق نشأ في ركاب الاستعمار حيث

[1] . ينظر: الميداني، عبد الرحمن حسن حبنكة، غزو في الصميم، دار القلم، ط: 1، سوريا. لبنان، 1982م، ص:244.

[2] . ينظر: الجندي، أنور، أهداف التغريب في العالم الإسلامي، الأمانة العامة للجنة العليا للدعوة الإسلامية بالأزهر الشريف، (دط)، مصر، (دت)، ص:3.

كانت البداية الحقيقية له مع دخول نابليون[1] إلى مصر في حملته الفرنسية. وهذه في واقع الأمر لم تكن حملة عسكرية فحسب إذ صحب نابليون معه إلى جانب جيشه العسكري، جيشا من العلماء والمفكرين اتجهوا إلى دراسة الحياة المصرية من جميع جوانبها، وألفوا كتابا عرف باسم «وصف مصر» وكان الهدف الظاهري لهذه الدراسات ملفا سياسيا من نابليون إلى المسلمين لإرضائهم، إلا أن الهدف الحقيقي لم يكن كذلك بل كانت هذه الدراسات وسيلة من وسائل الاستعمار لتمهيد سيطرته على الفكر المصري والإسلامي تمهيدا لإحكام قبضته عليه بعد الوقوف على أوضاعه ونواحي ضعفه»[2].

وهكذا فإن المستشرقين جاؤوا مع الاستعمار بهدف التمهيد لإخضاع الأمة الإسلامية فكريا لتخضع سياسيا، وكان لابد من تهيئة العقول المسلمة لتقبل الفكري الغربي.

المطلب الثاني: البعثات العلمية:

وإلى جانب العمل الاستشراقي، الذي عمل بكل جهد لتهيئة الأمة المسلمة لقبول التغريب، كان هناك ما يسمى بالبعثات العلمية إلى أوربا، وهذه البعثات في الأصل كانت بتخطيط أوربي وراءه المستشرقون، فأول من أقدم على هذا العمل، محمد علي[3] والي مصر بعد

---

[1]. نابليون الأول (1769 . 1821) ولد في أجاكسو، إمراطور فرنسا 1804 . 1815 ، اشتهر في حملة إيطاليا الأولى 1794 وحاة إيطاليا الثانية 1796 قاد حملة على مصر 1798 . 1799 فانتصر في معركة الأهرام، جلب من الفاتيكان مطبعة عربية (بولاق)، قنصل أول 1799 ثم قنصل مدى الحياة 1800، نشر القانون المدني 1804، سمي إمبرطورا 1804، اشتهر بانتصاراته الكثيرة، عزل 1814، انزوى في جزيرة إليا، عاد إلى باريس بعد أشهر قليلة، تحلفت أوربا ضده فهزم في معركة واترلو 1815، نفي إلى جزيرة القديسة هيلانة حيث توفي. ينظر: المنجد في اللغة والأعلام، دار الشروق، ط: 31، لبنان، 567.

[2]. الفيومي، محمد إبراهيم، الاستشراق رسالة استعمار، دار الفكر العربي، (دط)، مصر، 1993م. 1413ه، ص: 214.

[3]. محمد علي باشا بن إبراهيم آغا بن علي المعروف بالكبير (1184 . 1265ه)(1770 . 1849م): مؤسس آخر دولة ملكية بمصر، ألباني الأصل مستعرب، احترف تجارة الدخان فأثرى، وكان أميا، تعلم القراءة في الخامسة والأربعين من عمره، وقدم مصر وكيلا لرئيس قوة من المتطوعة تتألف من 300 رجل، نجدة لرد غزاة الفرنسيين عن مصر، فشهد حرب أبي قير (سنة 1214ه)، جامل المماليك فناصروه، وما زال حتى صار والي مصر(سنة 1220ه)، في حديث طويل، فعني بتنظيم حكومتها، وقتل المماليك غدرا (سنة 1226ه)، أنشأ السفن في النيل وضم معظم السودان الشرقي إلى دولته، حارب الوهابيين بإيعاز من العثمانيين، استولى على سوريا وافتكها من العثمانيين، ثم تنازل لهم عليها مقابل منح

انحسار الفرنسيين عنها، وهذا الوالي كان مستشاروه من المستشرقين، وهم الذين أوحوا إليه بهذه الفكرة، يرى الأستاذ محمود محمد شاكر أن فكرة «البعثات العلمية» لم تكن نابعة من عقل محمد علي، بل كانت نابعة من عقول تخطط وتدبر لأهداف بعيدة المدى[1]، يعني بذلك المستشرقين. وهذه الأهداف البعيدة هي تغريب العالم الإسلامي وجعله قابلا للخضوع للاستعمار الغربي.

وقد استمرت هذه البعثات التي كانت في بداية الأمر قليلة العدد، وكانت توجه إلى بلدان أوربية متعددة، ثم إن المستشرقين الفرنسيين استطاعوا أن يقنعوا محمد علي بتوجيه البعثات إلى فرنسا، وهناك كان في انتظارها مسيو جومار[2] الذي وكل إليه العناية بالمبتعثين، وهكذا نجح الاستشراق ونجح جومار في إقناع محمد علي وتم إرسال بعثات كبيرة من شباب مصر إلى فرنسا في يوليه 1826م وتتابعت إلى سنة 1847م، وكان جومار يضع هؤلاء الشباب تحت أيدي المستشرقين يوجهونهم إلى الجهة التي يريدون توجيههم إليها، ويعطونهم القدر اليسير من العلوم التي يدرسونها، ثم يردونهم إلى مصر، وفي مصر كان منهم مبشرون بالحضارة الغربية مثل رفاعة الطهطاوي[3] وغيره وكان لهم أثر في نشر أفكار الغرب وسط

= العثمانيين إياه ملك مصر وراثيا (سنة 1257ه)، كثرت في أيامه المدارس، وأرسل البعثات إلى أوربا لتلقي العلم، اعتزل الحكم لابنه إبراهيم (سنة 1264ه . 1848م)، وأقام في قصر رأس التين بالأسكندرية،مريضا إلى أن توفي بها، ودفن بالقاهرة. ينظر: الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، ط: 15 ، لبنان، 2ايو 2002، ج: 6، ص: 299. هذا ولبعض الدارسيين رأي مختلف في محمد علي هذا، ينظر مثلا: شاكر، محمود محمد، المتنبي، ص: 139.

[1]. ينظر: شاكر، محمود محمد، المرجع نفسه، ص: 139.

[2]. آدم فرنسوا جومار (1777 . 1862م) أستاذ فرنسي كانت له منزلة كبيرة عند نابليون، شارك في الحملة الفرنسية على مصر، انتخب بعد عودته إلى فرنسا عضوا في المجمع العلمي الفرنسي، كان شديد الاهتمام بمصر، عهد إليه محمد علي بالإشراف على الطلبة المبتعثين. ينظر: شاكر محمود محمد، المتنبي، ص:140.والحوالي، سفر بن عبد الرحمن، العلمانية، دار الهجرة، (دط)، (دب)، ص: 590.

[3]. رفاعة رافع بن بدوي بن علي الطهطاوي (1216 . 1290ه) (1801 . 1873م) ولد في طهطا، وقصد القاهرة سنة 1223ه ، تعلم في الأزهر، وأرسلته الحكومة المصرية إماما للصلاة والوعظ مع بعثة من الشبان أوفدتهم إلى أوربة لتلقي العلوم الحديثة، فدرس الفرنسية وثقف الجغرافية والتاريخ، ولما عاد إلى مصر ولي رئاسة الترجمة في المدرسة الطبية، وأنشأ جريدة (الوقائع المصرية)، وألف وترجم من الفرنسية كتبا كثيرة منها (قلائد المفاخر في غرائب الأوائل والأواخر

مجتمعهم.[1] ويقول الدكتور محمد محمد حسين، متحدثا عن هذه المرحلة من مراحل الاتصال بين أوربا والعالم الإسلامي، وبعد أن تكلم عن الضعف الذي وصلت إليها بلاد الإسلام، وما وصل إليه الأوربيون من القوة، وكيف راح بعض الزعماء من المسلمين يقتبسون من الغرب ما يظنون أنه يقويهم ويصلح جيوشهم: « كان اتصال الإسلام بالحضارة الغربية في هذه المرحلة محصورا في الجانب المادي الآلي منها، أو كذلك أريد له أن يكون، ولم يكن يستهدف أصحابه إلا وصل المسلمين بأسباب القوة، لكي يكونوا أندادا لأعدائهم»[2]. ثم يقول بعد ذلك: « إلى هذا المدى، وفي هذه الحدود، ولهذا الهدف السليم، لم يكن هناك مجال لقيام تعارض بين الإصلاح وبين الإسلام، لأن الأمر كان بعيدا عن أن يمس نظمه أو قيمه. ولكن الأمور لم تسر على ما أريد لها أن تكون فمع النظم الحربية الجديدة تسربت نظريات سياسية وعناصر حضارية وثقافية غربية. فقد استلزمت الإصلاحات العسكرية الجديدة إصلاحا في نظم التعليم وفي برامجه، واستلزمت ترجمة كثير من الكتب الأوربية في مختلف العلوم والفنون، واستلزمت استقدام خبراء ومدرسين من الأجانب، كما استلزمت

إرسال بعوث علمية إلى مختلف المعاهد الأوربية»[3].

وكان لابد أن يتأثر المبعوثون إلى أوربا بحضارتها وثقافتها وتقاليدها، وهذا ما كان يرمي إليه المستشرقون، فقد كان هدفهم صناعة أجيال من المثقفين يكونون حزبا مواليا للاستعمار في بلادهم، ورسلا مبشرين بأفكاره بين ظهراني قومهم، وقد كان ذلك، وتم لهم ما أرادوه، يقول محمد محمد حسين: « وتأثر أعضاء البعثات بما شاهدوه في المجتمع الأوربي واضح فيما كتبوه أثناء إقامتهم في أوربا أو بعد عودتهم منها. ونستطيع أن نلمس ذلك على سبيل المثال في عضوين من الجيل الأول لهؤلاء المبعوثين، أحدهما مصري أقام في باريس خمس سنوات

= و(مبادئ الهندسة)، أسس مدرسة الألسن، وتوفي بالقاهرة. ينظر: خير الدين الزركلي، الأعلام، ج: 3، ص: 29.

[1]. ينظر: شاكر، محمود محمد، المرجع نفسه، ص:. 141.

[2]. حسين، محمد محمد، الإسلام والحضارة الغربية، دار الفرقان، (دط)، (دب)، ص:16.

[3]. المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

من (1826 إلى 1831) وهو رفاعة الطهطاوي، والآخر تونسي أقام في باريس أربع سنوات (1825 . 1856) وهو خير الدين التونسي[1]»[2]. وبعد أن يستعرض الكاتب ما طرحه كل منهما من أفكار متأثرا بالغرب يقول: « وفي هذا الطور المبكر، من مراحل الملحمة الطويلة، التي لم تصل بعد إلى نهايتها ومستقرها، أثيرت رؤوس المسائل التي شغلت الفكر الإسلامي ولا تزال تشغله»[3].

المطلب الثالث: الإرساليات التبشيرية:

ومما ساعد في إيجاد الأرضية لتقبل الأفكار الغربية ما يسمى بالإرساليات التبشيرية، هذه الإرساليات التبشيرية التي توزعت في بلاد الإسلام، لم يكن لها من هده سوى زعزعة الكيان الإسلامي، وتهيئة البلاد والعباد للاستعمار الغربي، وتقبل الأفكار التغريبية بعد تفريغهم من دينهم وعقيدتهم وأخلاقهم، وقد أفصح عن ذلك القس صموئيل زويمر[4] رئيس جمعيات التبشير في مؤتمر القدس التبشيري (1935)، حين قال المبشرين الذين انتدبتهم دول أوربا للعمل في حقل التبشير: « مهمة التبشير التي ندبتكم دول المسيحية بها في البلاد المحمدية ليست هي إدخال المسلمين في المسيحية فإن في هذا هداية لهم وتكريما، وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقا لا صلة له بالله، وبالتالي لا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها، وبذلك تكونون أنتم بعملكم هذا طليعة الفتح

---

[1]. خير الدين التونسي (1225 . 1308ه)(1810 . 1890م) من أصل شركسي، وزير ومؤرخ، قدم تونس صغيرا فاتصل بصاحبها الباي أحمد، وتعلم العلوم الدينية واللغات التركية والفارسية والعربية، ثم التحق بوظائف الحكومة، وتقلب في كثير من المناصب السامية، فاختير وزيرا للحربية في تونس، ثم دعاه السلطان عبد الحميد إلى القسطنطينية فولاه الصدارة العظمى، توفي بالقسطنطينية، من مؤلفاته: أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك. ينظر: كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، مؤسسة الرسالة، ط: 1، لبنان، 1414ه. 1993م، ص: 694.

[2]. المرجع نفسه، ص: 18.

[3]. المرجع نفسه، ص: 40.

[4]. زويمر، صمويل، (1867. 1925م) رئيس المبشرين في الشرق الأوسط، تولى تحرير مجلة العالم الإسلامي التي أنشأها مع ماكدونالد، وله مصنفات في العلاقات بين المسيحية والإسلام أفقدها بتعصبه واعتسافه وتضليله قيمتها العلمية منها : يسوعفي إحياء الغزالي (1912)، وبلاد العرب منذ الإسلام، وداخل العالم الإسلامي (1919) وغيرها كثير. ينظر: العقيقي، نجيب، المستشرقون، دار المعرف، (دط)، مصر، 1964، ص: 1005.

الاستعماري في الممالك الإسلامية»[1]. ثم يضيف زويمر مخاطبا المبشرين: « إنكم أعددتم بوسائلكم جميع العقول في الممالك الإسلامية إلى قبول السير في الطريق الذي مهدتم له كل التمهيد. إنكم أعددتم نشأ لا يعرف الصلة بالله ولا يريد أن يعرفها، وأخرجتم المسلم من الإسلام ولم تدخلوه في المسيحية وبالتالي جاء النشء الإسلامي طبقا لما أراده له الاستعمار لا يهتم بالعظائم ويحب الراحة والكسل»[2].

ويتحدث أنور الجندي عن خطورة مدارس التبشير فيقول:« بدأ الغزو التربوي والتعليمي والثقافي للعالم الإسلامي من نقطة واحدة هي «مدرسة الإرساليات» وامتد منها إلى الجامعة، ثم امتد من الجامعة إلى الصحافة ومجالات الثقافة المختلفة»[3] وكانت الإرساليات . في نظر الكاتب . تعمل لهدف واحد « هو استيعاب الشباب العربي والمسلم واحتواؤه وتعليمه على نحو يجعله يدا من أيدي القوة الغربية وعينا من عيونها»[4].

ويقول الميداني في الصدد نفسه: « أما مدارس التبشير فقد أسست بدعم من الدول الاستعمارية في كثير من بلدان المسلمين ، لتنشئ من أبناء المسلمين أجيالا تتحلل من دينها عقيدة وسلوكا وأخلاقا وولاء، وتتحلل من أمتها ولاء وارتباطا، وتقتبس السلوك الفردي والاجتماعي الذي يدربها عليه المعلمون المبشرون، وتتنصر، أو تكون ملحدة، أو علمانية لا تهتم بالدين ولا بأية قضية ذات صلة به، ويكون ولاؤها للدولة الاستعمارية التي تنتمي لشعبها المدرسة التبشيرية أو لشعب هذه الدولة »[5]. ثم يذكر الكاتب ما ظهر من أهداف هذه المدارس، وهي الأهداف التي من أجلها تم إنشاؤها، فيقول: « وقد ظهرت هذه الأهداف التي قامت عليها مدارس التبشير لكل من نظر إلى واقعها الفعلي في كل أركان التعليم لديها. وظهرت أيضا بما أنتجته هذه المدارس من أجيال كانت منطلق التحول عن الإسلام كليا أو

[1]. التل، عبد الله، جذور البلاء، دار الإرشاد، ط: 1، لبنان، 1390ه. 1971م، ص: 275.
[2]. المرجع نفسه، ص: 276.
[3]. الجندي، أنور، التربية وبناء الأجيال، دار الكتاب اللبناني، ط: 1، لبنان، 1975، ص: 21.
[4]. المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
[5]. الميداني، عبد الرحمن حبنكة، غزو في الصميم، ص: 24.

جزئا، وكانت منطلق تأصيل اتباع الغرب في كل ما يفرزه من أفكار ومذاهب، وسلوك فردي واجتماعي، وعادات وتقاليد، ونظم ومبادئ »[1].

ولما أحس المبشرون بقلة استجابة المسلمين لأفكارهم، غيروا من خططهم، فجعلوا مدارسهم التبشيرية جامعات علمية ليسهل عليهم التأثير في أبناء المسلمين، فالجامعة الأمريكية في بيروت مثلا كانت تحمل اسم الكلية السورية الإنجيلية، ثم علمت بالتجربة أن تأكيد الناحية التبشيرية في عملها قد ضيق حقله مما جعله لا تجتذب سوى قسم من أبناء المجتمع العربي، وأصبحت علاقتها بالأقسام الأخرى تتسم بشيء من التوتر، ومن ثم غيرت اسمها التبشيري محتفظة ببعض الأشكال الموروثة عن ذلك العهد التبشيري.[2]

وقد كانت تلك الجامعات تتبوأ مراكز الصدارة بين المراكز العلمية في بلاد المسلمين، ويلتحق بها الفئة المختارة من الأبناء والبنات، ويتخرجوا منها وقد حملوا أسوء فكرة عن دينهم وعقيدتهم، وتنكروا لقيمهم وتقاليدهم. وقد نجحت هذه الجامعات في إيجاد شخصيات مسلمة تتبنى الأفكار والمبادئ المعادية للإسلام، وكثيرا ما تتبوأ هذه الشخصيات مراكز النفوذ والحكم في البلاد، وعن طريقهم يستطيع دعاة التبشير أن يحققوا ما يريدون دون أن يشعر بهم أحد، لأن تلك الشخصيات ليست مجالا للطعن فيها، ولأنها كانت تتمتع بالمحبة والتقدير، فكان كلامها أقرب إلى النفس وأبعد عن الريبة.[3]

المطلب الرابع: التعليم الوطني الاستعماري:

ولا يقل خطورة عما سبق ذكره المدارس التي أنشأها الاستعمار في البلاد الإسلامية وهي ما يعرف بالمدارس الوطنية التي كانت منافسا للمدارس الدينية. فإذا كانت مدارس الإرساليات قد كشفت عن محاذير خطيرة، فإن التعليم الوطني في البلاد المستعمرة قد مر

[1]. المرجع نفسه، ص: 25.

[2]. ينظر: الجندي، أنور، التربية وبناء الأجيال، ص: 24.

[3]. ينظر: الدهان، محمد محمد، قوى الشر المتحالفة، دار الوفاء، ط: 2، مصر، 1408ه. 1988م، ص: 99.

بتجربة أشد خطورة وأبعد أثرا في هدم شخصية الطالب المسلم وتدميره وجعله أداة طيعة للنفوذ الغربي، وموواليا مستسلما للأجنبي المحتل[1].

وقد جاء هذا التعليم الوطني صورة من التبعية والولاء في برامجه وأعماله واتجاهاته لما خططه الاستعمار في معاهد الإرساليات، ففي مصر بدأت الإرساليات عام 1844، فمهدت للاحتلال الذي وقع عام 1882، فكانت المدة كافية لهذه التجربة كي تمد النظم التعليمية التي وضعها المحتل بالخبرة والمناهج والدراسات التطبيقية، والأمر كذلك بالنسبة للاحتلال الفرنسي للجزائر وتونس والمغرب وسوريا ولبنان [2].

إن هذا التعليم الذي وضعه الاستعمار، قد زاحم بقوته وأساليبه العصرية التعليم الديني الذي كان سائدا من قبل، بل عزل التعليم الديني وزاده جمودا وبعدا عن توجيه الحياة، ووجد الأهالي أنفسهم مضطرين إلى أن يدخلوا أولادهم إلى هذه المدارس الحديثة فلقمة العيش كانت عن طريقها وحدها. فلقد حوصر التعليم الديني حصارا شديدا بفتح التعليم اللاديني وتشجيعه، وإغداق الموارد المادية عليه وتضييقها على التعليم الديني، فمناصب المعاهد والكليات الدينية محدودة، متواضعة في الأجر والمظهر، ومناصب المعاهد والكليات الأخرى عديدة فارهة المظهر والأجر، وذلك سبب النفور من الدين والإقبال على غيره[3].

لقد كانت خطة الاستعمار تهدف إلى القضاء على التعليم القائم على مناهج عربية إسلامية شاملة، وخلق تعليم بديل يستمد مناهجه من نظم مدارس الإرساليات، ولم تمض سنوات حتى اختفى التعليم الأصيل وحل محله التعليم الذي وضعه الاستعمار[4].

---

[1]. ينظر: الجندي، أنور، المرجع نفسه، ص: 57.

[2]. ينظر المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[3]. جريشة، علي محمد، ومحمد شريف الزيبق، أساليب الغزو الفكري في العالم الإسلامي، دار الاعتصام، ط: 3، (دب)، 1399ه. 1979م، ص: 64.

[4]. ينظر: المرجع نفسه، ص: 60.

وقد « اعتمد التغريب والغزو الثقافي على«التعليم» كأساس لتغيير أعراف هذه الأمة الإسلامية ووجهتها ومفاهيمها، فأسس في مدارس إرسالياته مناهج مسمومة مفرغة من أصول الإسلام ثم فرضها على مناهج وزارات التعليم في العلم الإسلامي»[1].

يقول هاملتون جب كما ذكر أنور الجندي : « لقد استطاع نشاطنا التعليم والثقافي عن طريق المدرسة العصرية والصحافة أن يترك في المسلمين. ولو من غير وعي منهم. أثرا يجعلهم في مظهرهم العام لا دينين إلا حد بعيد، ولا ريب أن ذلك خاصة هو اللب المثمر في كل ما تركته محاولات الغرب لحمل العالم الإسلامي على حضارته من آثار»[2].

يقول أنور الجندي: « سيطر التعليم الاستعماري الوطني في مص وسوريا والعراق والسودان وليبيا وتونس وفلسطين والجزائر ومراكش من الأقطار العربية. كما سيطر تعليم الإرساليات الأجنبي في هذه البلاد أيضا وسيطر بصفة واضحة في تركيا وإيران والهند وإندونيسيا والملايو وكانت أبرز مراكزه في بيروت وإسطنبول والقاهرة. وقد حقق الاستعمار أهدافه في السيطرة على العالم الإسلامي عن طريق التعليم عندما لم تمر سنوات قليلة حتى خرج ثماره ممن تولوا أمور البلاد وقيادتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية»[3].

وبعد احتلال الإنجليز لمصر ظهر على مسرح الأحداث قسيس مبشر هو دنلوب[4]،

---

[1]. الجندي، أنور، أهداف التغريب في العالم الإسلامي، ص: 95.

[2]. المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[3]. الجندي، أنور، التربية وبناء الأجيال في ضوء الإسلام، ص: 76.

[4]. دوجلاس دنلوب، ولد في اسكتلندا 1860، تخرج في القسم اللاهوتي في إحدى كلياتها، جاء إلى مصر مبشرا 1889، وعين مدرسا في مدرسة سنت أندرو التابعة للمجتمع التبشيري لاسكتلندا وسعى لدى كرومر حتى عين مدرسا للإنجليزية في مدرسة المهندسخانة فالمعلمين الخديوية، عين سكريتير للمعارف في 8 مارس 1897 ثم مستشارا في 24 مارس سنة 1906، قاوم نشر التعليم العلي في مصر لأن انجلترا لا تريد نشر التعليم العالي في مصر، وأنها لا تريد إلا إعداد جمهور من الأفندية ليشغلوا الوظائف الثانوية في الحكومة، وأن زيادة التعليم تصرف عن فلاحة الأرض وتعود على مصر بالإفلاس، وقد ظل كرومر يشرف على المعارف حتى سنة 1930، وقد عمل على تنفيذ خطة التغريب الكاملة للتعليم على النحو الذي ظل يشق طريقه من بعد، وكان المخطط يهدف أساسا إلى تغريب الثقافة وتدمير الشخصية

الذي عينه كرومر[1] سكريتيرا لوزارة المعارف سنة 1897م، ثم مستشارا لها سنة 1906م، وما زال كذلك حتى سيطر سيطرة تامة على شؤون التربية والتعليم، ويعد دنلوب واضع المخطط الأساسي لتغريب التعليم والتربية، وإقصاء الإسلام وتاريخيه واللغة العربية عن برامج التعليم في المدرسة المصرية[2]، وكان هدف هذا المخطط هو تغريب الثقافة العربية وتدمير الذاتية الإسلامية والتشكيك في كل مقومات الفكر والأمجاد والتاريخ لدى الأمة[3].

يقول الأستاذ محمود شاكر: « جاء الاستشراق الإنجليزي ليحدث في ثقافة الأمة المصرية صدعا متفاقما أخبث وأعتى من الصدع الذي أحدثه الاستشراق الفرنسي، ووضع دنلوب أسس التفريغ الكامل لطلبة المدارس المصرية، أي تفريغ الطلبة من ماضيها المتدفق في دمائها مرتبطا بالعربية والإسلام»[4].

لقد استعرضنا في هذا المبحث قصة التفريغ الثقافي لأبناء الأمة الإسلامية، وقد تتبعنا مختلف المسارات التي سارت فيها خطة التفريغ، وسنعرض في المبحث الموالي للوسائل التي استخدمت في هذا التفريغ.

المبحث الثالث: وسائل التفريغ الثقافي:

اتخذ أعـداء الإسلام عـدة وسائل لتفـريغ أجيال المسلمين ، بتفريغ قلـوبهم وعقـولهم

= العربية والتشكيك في تراث الأمة. ينظر: العفاني، سيد بن حسين، أعلام وأقزام في ميزان الإسلام، دار ماجد ، ط: 1، السعودية، 1424ه. 2004م، ج: 2، ص: 429 وما بعدها.

[1] . ايفيلنج بارنج كرومر، يعد واحدا من دعاة التغريب والاستعاريين في العالم الإسلامي، تمثل كتاباته في تقاريره وفي كتابه (مصر الحديثة) خطة عمل كاملة، وإيديولوجيا شاملة للقضاء على مقومات الفكر العربي الإسلامي وتمزيق وحدة العالم الإسلامي ومقاومة القيم والمفاهيم العربية والإسلامية، أمضى اللورد كرمر ما لا يقل عن ربع قرن في مصر قابضا على زمام السلطات (1882. 1906)، وكان قد أمضى من قبل وقتا في الهند حيث أتيح له أن يدرس مناهج الاستعمار البريطاني هناك، عمل في أول أمره في مصر مندوبا في صندوق الدين المصري 1877، ثم عين مباشرة بعد الاحتلال البريطاني مندوبا ساميا ومعتمدا لبريطانا. ينظر: العفاني، سيد بن حسين، المرجع نفسه، ص: 410. 411.

[2] .ينظر: المرجع نفسه، ص: 66.

[3] .ينظر: المرجع نفسه، ص: 68.

[4] .شاكر، محمود محمد، المتنبي، ص: 148.

ونفوسهم، من محتوياتها ذات الجذور العقلية والوجدانية والعاطفية والأخلاقية[1]. وينبغي أن يلاحظ أن هذا التفريغ يتم مع الملأ بأشياء أخرى مما يفسد العقائد والأخلاق، ويثير الشبهات حول الدين والقرآن والرسول صلى الله عليه وسلم.

لقد وضع العدو عدة وسائل في خطته لتحقيق غاية التفريغ، وهي جميعها تهدف إلى عزل الأجيال الناشئة في بلاد الإسلام عن كل وعي ديني سليم، ووضع العقبات التي تحول دون معرفتهم الصحيحة بدينهم، وإفساد المفاهيم الصحيحة تمهيدا لانتزاعها كليا[2]. ومن هذه الوسائل ما يأتي[3]:

الوسيلة الأولى: فصل العلوم الدينية عن العلوم الأخرى، واصطناع الشقاق بينها وبين علماء كل منهما، وتيسير حظوظ الدنيا لمتعلمي العلوم الدنيوية، وحجبها عن متعلمي العلوم الدينية، وذلك بهدف عزل طلاب كل قسم عن تعلم علوم القسم الآخر، وهذا الفصل يجعل كل فريق يتعصب لنوع دراسته ويزدري النوع الآخر، مما يولد قناعة لدى الدارسين بأن النوعين من العلوم لا يتفقان، والنتيجة التي يقدرها واضعوا هذه الخطة أن تنتصر علوم الدنيا وتنهزم علوم الدين بكل ما فيها من خير وحق، فأبعد طلاب العلوم الشرعية عن أكثر مجالات الحياة وحصر نشاكهم في المساجد وبعض الوظائف ذات الاختصاص الديني، حتى لا يكون لأفكارهم تأثير في توجيه الأمة، وحتى لا يتمكنوا من فضح خطط الأعداء، وهكذا يتسنى لهم فصل الدين عن الحياة، لتجد الأمة نفسها في حاجة لاستيراد أنظمة الحياة من الغرب وهكذا تنشأ أجيال منفصمة عن دينها تجهل عقيدتها ومبادئها وأخلاقها فيسهل تغريبها.

---

[1] . ينظر: الميداني، عبد الرحمن حسن حبنكة، أجنحة المكر الثلاثة، دار القلم، ط: 8، سورية، 1420ه. 2000م، ص: 253.

[2] .ينظر: المرجع نفسه، ص: 254.

[3] .ينظر : المرجع نفسه ، الصفحة نفسها وما بعدها، بتصرف واختصار.

الوسيلة الثانية: تسخير فئات تدخل في المفاهيم الإسلامية أغاليط وأكاذيب ومبتدعات، وتعمل على تشويه حقائق الإسلام، وإبعاد الأجيال عنه، وقد كان الاستعمار يشجع على البدع المحدثة، ويضيق على المدارس الإسلامية والعلوم الدينية الصحيحة، وهذا كان له آثار سيئة منها:

1 . إبعاد هذه المجموعات عن دراسة علوم الدين دراسة صحيحة، تعدهم لتفهم غاياته وأحكامه التي يأمر بها، والتي منها عزة المسلمين، ووجوب مجاهدة الكافرين، والعمل على بسط سلطان الحكم الإسلامي في البلاد.

2 . امتصاص شحنة الطاقة الدينية الكامنة في نفوس المسلمين بما تورثه تلك الأعمال من القناعة الداخلية بقيام الفرد نحو ربه بجهد كاف.

3 . تحويل المسلمين عن تعاليم الإسلام الصحيحة، وإضافة أشياء جديدة غريبة إليه، وبعد مدة تصبح هذه المبتدعات هي الأصل الديني، وتصبح أركان الإسلام شيئا ثانويا.

4 . تنفير الأجيال المثقفة من الإسلام تذرعا بهذه الأخلاط المبتدعة، والتي تصم الدين بأنه أخلاط من العبادات الوثنية، وهي في الحقيقة بدع محدثة ما أنزل الله بها من سلطان.

الوسيلة الثالثة: تولية قيادات دينية تعطي صورة سيئة عن الإسلام في مفاهيمها أو في سلوكها، وإبعاد العناصر التي تدرك حيل الأعداء وكافح لإحباط مخططاتهم، وذلك يترك أسوء الأثر في جماهير المسلمين، فإذا انحرفت هذه القيادات فإنها تضلل فئة كبيرة من المسلمين بدافع الاقتداء والاتباع، أما الذين لا يرضون بسلوك هذه القيادات فإنهم يتجهون في طرق أخرى، ثم تنسحب النقمة من القيادات إلى العلوم الدينية، فينفر منها من يريد خدمة الإسلام، وإذا انعدمت الثقة في الدعاة إلى الله عبث الشيطان وجنوده في صفوف الأمة، دون أن يجدوا من يقف لهم بالمرصاد، وكل هذا كسب لأعداء الإسلام.

الوسيلة الرابعة: التضييق على طلاب العلوم الدينية والمعارف التي تتصل بها، وتوجيه ألوان الاضطهاد للدعاة إلى الإسلام، ومحاربة الحركات الإصلاحية بإضعاف قواها وإثارة

الشكوك حولها والإيقاع بينها وبين غيرها من المؤسسات الإصلاحية، ودس العناصر التي تعمل على تفتيتها، وتبديد طاقتها وتحوير اتجاهها السليم.

الوسيلة الخامسة: إثارة الشكوك حول عقائد الإسلام ومبادئه ونظمه وعباداته، لإضعاف ثقة المسلمين بكمال دينهم، وإقناعهم بأن التقدم لا يكون إلا بالتخلي عن الدين كما فعل الغربيون، وهو قياس باطل، فالدين الإسلامي لم يقف يوما في وجه العلم كما فعلت الكنيسة، بل على العكس من ذلك كان الإسلام ولا يزال حافزا للعلم داعيا إليه مرغبا فيه.

الوسيلة السادسة: إثارة التهكم والسخرية بعلماء الإسلام والأحكام الإسلامية والعبادات وممارسيها، وهو سلاح قوي الأثر لدى ضعفاء النفوس الذين توجههم الضغوط الاجتماعية، ويتخاذلون أمامها، ويحيدون عن الهدى أمام استهزاء المستهزئين وسخريتهم، وقد انتشرت في بلاد الإسلام أجهزة مأجورة تستخدم هذه الوسائل.

الوسيلة السابعة:تنفير الأجيال المسلمة من واقعهم وتاريخهم عن طريق تشويهه وعرض النقائص المتفرقة في صورة واحدة تمثل صورة المسلمين، مع طمس كل الفضائل والكمالات التاريخية والمعاصرة.

المبحث الرابع: علاقة الحداثة بالتفريغ الثقافي:

الفكر الحداثي ليس وليد القرن العشرين، ولكن له جذور تعود إلى البدايات الأولى لتصادم الغرب مع المسلمين، إذ «يعيد كثير من الباحثين جذور الحداثة إلى أواخر القرن الثامن عشر، عندما غزا نابليون مصر، لأن هذا التاريخ يمثل بداية المجابهة المباشرة بين الغرب والشرق، بين الخلافة العثمانية الناطقة باسم المسلمين بما فيهم العرب وبين أوربة »[1]. إن الفكر الحداثي العربي يستمد جذوره من الفكر الحداثي الغربي، فالحداثة عند العرب « مصدرها الأول هو الحضارة الغربية، وما تنطوي عليه من ملل وثنية ومذاهب فلسفية،

[1] . مفتاح، الجيلاني، الحداثيون العرب في العقود الثلاثة الأخيرة والقرآن الكريم دراسة نقدية، دار النهضة، ط: 1، سوريا، 1427ه.2006م، ص: 19.

واتجاهات فكرية، ومناهج وضعية. والمتتبع لما يكتبه ويقوله الحداثيون العرب، وما يدعون إليه، يتبين له بكل جلاء أن جذور حداثتهم غربية في أصولها، ومناهجها، ومذاهبها، غريبة على شرع الله تعالى»[1].

إن الحداثة الغربية دخلت عالم المسلمين مع ما دخل من غزو وتغريب، وهذا الغزو والتغريب قد مر بمراحل، ولعل الحداثة هي الحلقة الأخيرة التي وصلت إليها عمليات الغزو والتغريب، ويتضح من هذا الصلة الوثيقة بين التفريغ الثقافي، الذي كان مهادا للغزو الفكري والتغريب، وبين الحداثة كنتيجة من نتائج الانبهار بحضارة الغرب وتقبلها بما فيه من خير أو شر، وهذا ما كان يدعو إليه المستغربون في الوطن العربي والإسلامي، فالتراث كله بالنسبة لعصرنا ـ في نظرهم ـ فقد مكانته، والوصول إلى ثقافة علمية وتقنية وصناعية لن يكون بالرجوع إلى تراث قديم، ولكن مصدره الوحيد ـ في نظرهم ـ هو أن نتجه إلى أوربا وأمريكا نستقي من منابعهم ما تطوعوا بالعطاء وما استطعنا من القبول، وتمثل ما قبلناه[2].

لقد كان الغرب وعملاؤه يعملون على إيجاد أرضية يتسللون منها إلى قلوب المسلمين وعقولهم، فكان التفريغ الثقافي وسيلتهم في تحقيق مآربهم، يقول الأستاذ أنور الجندي:« ولعل أخطر محاولات التغريب إنما ركزت على تفريغ العقل والقلب العربي الإسلامي من القيم الأساسية المستمدة من التوحيد والأخلاق والإيمان بالله، ودفع هذه القلوب والعقول عارية أمام عاصفة هوجاء تحمل معها السموم والجراثيم عن طريق التعليم والصحافة والكتاب والمسرحية والفيلم والأزياء والملابس»[3]، ثم يضيف مبينا النتائج الوخيمة لهذا التفريغ فيقول:« ومن ثم خرجت هذه المؤسسات جميعا ذلك الجيل الذي حمل دعوة الهدم، وسار بها تحت اسم التقدم والحضارة، وعمد إلى متابعة المستشرقين والمبشرين في تحريف

---

[1]. العلي، محمد بن عبد العزيز بن أحمد، الحداثة في العالم العربي. دراسة عقدية، ص: 186.

[2]. ينظر: مفتاح، الجيلاني، المرجع نفسه، ص: 20، وهو ينقل عن زكي نجيب محمود، تجديد الفكر العربي، ص: 110 وص: 82.

[3]. الجندي، أنور، معلمة الإسلام، دار الصحوة، (دط)، مصر، 1411ه. 1991م، ج: 2، ص: 100.

التاريخ الإسلامي، وتشويه مبادئ الإسلام وثقافته، وانتقاص الدور الذي لعبه في تاريخ العالم، مع خلق شعور بالنقص في نفوس المسلمين»[1].

لقد كان من نتائج الغزو الفكري والتغريب، بعد التفريغ الثقافي للأجيال المسلمة من كل ما له صلة بدينها، أن وقع المسلمون في انحرافات كثيرة، ومن هذه الانحرافات[2]:

1 . سيطرة مفاهيم غير صحيحة على أفكار الكثيرين، منها مستحدث، ومنها موروث من عصور الانحطاط.

2. الانبهار بظواهر الحضارة المادية الحديثة، وهذا يقود إلى التقليد الأعمى.

3. التخلف العلمي والعملي.

4. تلقي الضربات المتتالية التي تهدف إلى إخراجهم من دينهم، وتفتيت وحدتهم الكبرى.

5 . تأثر معظم طلائع الأجيال الحديثة بعمليات الغزو الفكري والنفسي والاجتماعي والسياسي والسلوكي، الذي غزيت به الأمة.

6 . تخلي معظم المسلمين عن التطبيقات الإسلامية، وارتداد كثير من أبناء المسلمين عن العقيدة والمفاهيم الإسلامية ارتدادا كليا.

7 . انتشار الجهل بالمفاهيم والتعاليم الإسلامية الصحيحة، وانشغال النفوس والأفكار بمطالب الأجساد والشهوات والأهواء.

إن هذه الانحرافات التي وقع فيها المسلمون، جعلت من السهل على كل معاد لدينهم وعقيدتهم وثقافتهم وحضارتهم وتاريخهم ومجدهم، أن يخترق جدار الحصانة لديهم، ومن ثم أمكن لأفكار الحداثيين، أن تجد تقبلا لدى الكثيرين من المثقفين، أولئك الذين لم يكن لديهم حصانة عقدية وفكرية تحميهم من الأفكار الشاذة والغريبة التي تطعن في دينهم، ولقد مر

[1]. المرجع نفسه، ص: 101.

[2]. ينظر: الميداني، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، أجنحة المكر الثلاثة، ص: 735 وما بعدها.

الغزو الفكري لأمتنا بمراحل، فكان أولها مع المستشرقين والمبشرين، ثم جاء دور المستغربين تلاميذ المستشرقين والمبشرين، ثم جاء أخيرا دور الحداثيين، وكل من هؤلاء قد أدى دورا كبيرا في غزو الأمة، ومحاربة قيمها ومبادئها، وإخضاعها لسلطان الغرب وسلطان حضارته وثقافته، وكما عمل المستشرقون من قبل على إحياء الأفكار القديمة، التي استطاعت الثقافة الإسلامية الأصيلة أن تنتصر عليها، وتئدها في حينها، فقد عاد الحداثيون من جديد إلى إحيائها، والمتمعن في أفكار الحداثيين يجدها امتدادا واضحا لأفكار الاستشراق، وهذا في الحقيقة ليس موضوع بحثنا، إنما الذي يهمنا هنا، هو أن التفريغ الذي مورس على الأجيال استطاع أن يهيئ الأرضية لتقبل كل الأفكار الدخيلة بما في ذلك الفكر الحداثي، وقد سبق لأفكار أخرى هدامة أن وجدت تقبلا لدى الكثير من المسلمين، وكل ذلك راجع إلى تفريغ الأجيال الذي بدأه الاستعمار وأكمله خلفاؤه من بعده، وكما راجت من قبل لدى بعض المسلمين أفكار الاستشراق والتبشير، وكما وجد المستغربون من يتلقى عنهم ويتقبل أفكارهم، كذلك وجد الحداثيون عند المفرغين ثقافيا آذانا صاغية، وقلوبا خاوية، تردد ما يقولونه ترديد الببغاوات من غير وعي ولا رشد.

ولما كان التفريغ الثقافي قد عمل عمله، ومهد الطريق، وهيئ الأجيال لتلقي الفكر الحداثي، فقد ظهر في المسرح الثقافي آثار هذا الفكر على الناشئين،« إن آثار الحداثة كثيرة، واختلاطها بآثار مثيلاتها، وبخاصة الماركسية والعلمانية والبعثية والوجودية، موجود، آثارها في المستقبل. بعد دراسة تخطيطها وسيرها. أكثر وأشد خطورة وتميزا »[1]. فمن آثارها[2]:

1 . إشاعة الفوضى العقدية والثقافية بين كثير من القارئين، ومن ثم تأثر كثير من شباب المسلمين وناشئتهم بالفكر الحداثي الثائر، وأصبحت لديهم جرأة كبيرة في نقد العقيدة والأحكام الشرعية واللغة العربية، والتطاول على العلماء والهزء بهم وبأقوالهم. والمتتبع للصحف والمجلات يلاحظ بجلاء كيف أثر الحداثيون في المفرغين من أبناء المسلمين ذكورا

[1]. العلي، محمد بن عبد العزيز بن أحمد، المرجع نفسه، ص: 1547.
[2]. ينظر: المرجع نفسه، ص: 1547 وما بعها بتصرف واختصار.

وإناثا، وكيف أصبحوا يتجرأون على نقد أحكام الشريعة، ولمز العقيدة، والقدح في الأئمة والأعلام، والإشادة بأئمة الحداثة الذين هم في نظرهم الطبقة المثقفة والنخبة والصفوة. وهذا نتاج التفريغ الثقافي الذي مكن للحداثيين من تربية الأجيال وغزوهم.

2. إيجاد طبقة معزولة عن المجتمع سياسيا وعقديا، لأن الواقع كله في نظر الحداثيين رجعي ومتخلف، في سياسته وعقيدته وأخلاقه وأعرافه، يجب تجاوزه وهدمه، فهي طائفة عنوانها القلق الدائم من كل سائد ونمطي ومألوف، وهدفها الثورة على النمطي السائد والمألوف في السياسة والعقيدة والأخلاق.

3. تجوؤ بعض النسوة على الأحكام الشرعية، بنقدها والخروج عليها وهو من آثار الحداثيين، فصرن يهاجمن الإسلام بدعوى الحرية والتقدم، وينادين بالتمرد عليه وعلى أحكامه، ولهن في ذلك كتابات فيما يسمى الأدب النسوي.

4 . إعلاء شأن الفرق الباطنية والفلسفية والصوفية، بوصفها ظواهر حداثية تمردت على المألوف السائد في العقيدة والشريعة، وهذه التصورات تلقى على مسامع الشباب فيتلقونها على أنها حقائق مسلم بها، ويلتبس أمرها على الكثير من المثقفين.

الخاتمة:

في ختام هذا البحث نخلص إلى جملة من النتائج والتوصيات:

أولا: النتائج:

1 . لقد نقل أعداء الإسلام الحرب من ميدان القتال والقوة العسكرية إلى ميدان الكلمة والفكر والثقافة، وفي هذا الميدان أصابوا من الأمة مقتلا ما كانوا ليصيبوه بقوة السلاح والجنود، وقد تيقنوا نجاعة الحرب الجديدة فلا يزالون يواصلونها بأشكال شتى.

2 . كان تعليم أبناء المسلمين وبناتهم المنفذ الذي تسلل منه أعداء الإسلام، فقد توصلوا بتغريب التعليم إلى تنشئة أجيال لا تعرف عن دينه إلا القليل، وهو ما جعله سهلة الابتلاع فصارت بعد حين سلاحا فتاكا بيد الغرب، وأصبح الغرب ينفذ مخططاته عن طريقها.

3. انتهج الاستعمار الغربي خطة التفريغ الثقافي، فقام بتفريغ أجيال المسلمين من كل ما يمت إلى دينهم أو تاريخهم أو ثقافتهم أو حضارتهم بصلة، وفي الوقت نفسه ملأهم بكل ما يمجد الغرب وثقافته وتاريخه وحضارته، فطمس بذلك بصائرهم، وشوه فطرهم، وحولهم أدوات للهدم والتغريب في بلادهم.

4. كان من نتائج التفريغ الثقافي والتغريب أن وجد في الأمة المسلمة أجيال تجهل دينها، غير محصنة من السموم والشبهات، فكانوا أرضا خصبة لتلقي أفكار الحداثة وتمريرها.

ثانيا: التوصيات:

يوصي الباحث بهذه التوصيات:

1. ضرورة تسليط الضوء أكثر على الخطة الاستعمارية التي انتهجتها فرنسا في الجزائر، فأكثر ما وجدت من المراجع يتكلم عن المشرق العربي وبالخصوص مصر، وخطط الاستعمار متشابهة إلا أن البحث في خطط فرنسا في الجزائر سيكشف عن الكثير من الأمور المجهولة في مكائد الاستعمار.

2. يجدر بالمسلمين عمليا أن ينقذوا الأجيال القادمة مما وقع للأجيال السابقة من تفريغ ممنهج، وذلك يكون بإعادة صياغة مناهج التعليم وفق منظور إسلامي يقوم على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

3. ضرورة أن تحمل المدارس الحرة في بلاد المسلمين مسؤولية التنوير الحقيقي لأبناء المسلمين حتى لا يسبق إليهم التنوير المزيف المغشوش، وذلك يتأتى بتزويد المدارس القرآنية ببرامج تعليمية تكوينية في العقيدة والعبادة والأخلاق وعدم الاقتصار على حفظ القرآن الكريم وحده كما هو حاصل الآن.